الخطبة التاسعة والسبعون

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون: 107/ 1-7]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ومن تبعه إلى يوم القيامة، أما بعد:

(الماعون) - سورة مكية، ترتيبها (107)، آياتها سبع، كلماتها (25)، حروفها (112)، من أسباب نزولها كما قال الواحدي: إن أبا سفيان بن حرب كان ينحر خروفين كل أسبوع، فأتاه يتيم يسأله، فقرعه بعصاه، فنزلت السورة -والله أعلم- وكلمة الماعون من اشتقاق العون، المعونة، الإعانة... إن العون وتقديم المعونة، وتقديم الخدمات، وإعانة الناس وقضاء حوائجهم، هي صفات مكتسبة للمؤمن، تميز شخصيته عن غيره، لأنه مؤمن بربه، يرجو ثواب ربه، يرجو جنته، يخاف ناره، علم هذا المؤمن من خلال الشريعة وأحاديث الرسول فضل إعانة الناس وفضل خدمتهم.

لو سألت الناس: ما هو الدين؟ لتنوعت الإجابات، ولكن الفهم السائد الذي خرجت به عندما سألت الناس هذا السؤال كانت الإجابات كلها منصبّة في إطار العبادات من صلاة وصيام وصدقة وما إلى ذلك، وهناك قليل قالوا المقولة المشهورة والتي ليست بحديث نبوي: (الدين المعاملة). وقال بعضهم: الدين هو القلب السليم الخالي من الكفر والشرك. وقال لي بعضهم قولة أيضاً مشهورة وهي موجودة في كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ويعتبرونها حديثاً نبوياً وهي ليست كذلك. ولو أننا ذهبنا إلى القرآن الكريم لرأينا أن الله تعالى يقول: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾﴾ [الماعون: 107/ 1].

السؤال الأول: مالفرق بين: (أرأيت)، و(ألم ترَ)؟ (أرأيت): وردت في القرآن الكريم (6) مرات، و(ألم تر) وردت (31) مرة.

الفرق هو: (أرأيت) أي: شاهدت بعينك امرأً موجوداً واقعاً تراه، أما: (ألم تر): فهو أمر غيبي لم تره بعينك وإنما أخبرك الله تعالى به، وحيث أن الله سبحانه وتعالى هو الذي أخبرك فقوله سبحانه وتعالى في أعلى درجات الصدق واليقين؛ لأنه سبحانه قوله الحق، فالخبر الذي يخبرك به الله تعالى يقيناً كأنك تراه بعينك، فقال: (ألم تر)، أمّا: (أرأيت): فهو واقع ملموس تراه أمامك.

السؤال الثاني: ﴿ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ من هذا الذي يكذب بالدين؟ إذا سألت الناس عن الدين فالكل يقولون: نعم إن الدين جميل، يدعو إلى وحدانية الله تعالى، يدعو إلى الفضيلة، يدعو إلى عمل الخير، يدعو إلى وإلى ... إذن لا أحد يُكذّب بالدين تكذيباً قولياً وتكذيباً لفظياً. ولكن أهذا هو المقصود في الآية؟ المقصود بالآية التكذيب العملي، التكذيب السلوكي، وكيف عرفنا هذا المعنى؟ من سياق الآيات في قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾ [الماعون: 107/ 2-3]، الذي يكذب بالدين، ذلك الإنسان الذي نُزعت الرحمة من قلبه فهو يضرب اليتيم ويحتقره ويهينه ويذلّه، هذا معنى: (يَدعّ) ... فهذا الإنسان خلا قلبه من الرحمة لأن قلبه خلا من الخوف من الله تعالى. خلا قلبه من الإيمان بأن هنالك محشر ووقفة بين يدي الله عز وجل. خلا قلبه من الإيمان بقوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝٢٢﴾ [ق: 50/ 21-22]، وعن أبي مسعود الأنصاري قال: «كنت أضرب غلاماً لي مملوكاً، فسمعت خلفي صوتاً يقول: (لَلّهُ أقدر عليك منك عليه)، قالها مرتين، فالتفت فإذا هو رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله هو حر لوجه الله تعالى، قال ﷺ: أما إنك لو لم تفعل للفحتك النار أو لمستك النار» رواه أبو داود - ومسلم من غير قوله: «هو حر لوجه الله».

ولا يحض على طعام المسكين، قد تكون فقيراً وليس عندك شيء تعطيه للفقير فهذا معروف وواقع، وليس هذا الذي قالته الآية، وإنما أن يكون عندك فائض ولا ترى حاجة المسكين ولا ترق له، ولا ترحمه، ولا تعطف عليه وعلى أولاده، وتقبل أن يتضرع جوعاً هو وأهله وأسرته، فهذا الذي لا يقبله من كان يؤمن بالله واليوم الآخر حقيقة. هذا الذي يكذب بالدين، يكذب بأن الله هو الرزاق، يكذب بأن الله هو العاطي، يكذب بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ: 34/ 39]. قال عليه الصلاة والسلام: «أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إليّ من أن أعتكف في المسجد شهراً، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظاً، ولو شاء أن يمضيه أمضاه، ملأ الله قلبه رضاً يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له، أثبت الله تعالى قدمه يوم تزل الأقدام، وإن سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل». حسن وأخرجه الطبراني في الكبير، وابن أبي الدنيا عن ابن عمر رضي الله عنه.

هذا الذي قال الله تعالى عنه: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ق: 50/ 25]، فهذا الذي يكذب بالدين، لا يُطعم المسكين وعنده فائض، ولا يساعد في إطعام المسكين ولا يحض ولا يَحرِص ولا يُحرِّض ولا يهمه شأن هذا المسكين، نُزعت الرحمة من قلبه -أناني- لا يرى إلا نفسه ولا يرى إلا مصلحته، ولا يرى إلا شهواته، وقد يكون في الصف الأول في المسجد ويحضر الجمعة والجماعات، ولكنه يكذب ويغش ويزوِّر ويأكل الحرام، ويُمزق أعراض الناس وسمعتهم، ويُفرق بين الأهل والإخوان، لا يهمه مطعمه ومشربه أَمِن حلال أم حرام. عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به» ك - صحيح الأدب المفرد. ما آمن بي إيماناً كاملاً،

وهذا يدل على نقص الإيمان، ونقص الثقة بالله لأن الله هو الرزاق، وهو الذي يُخلف الرزق كما قال تعالى، وهو العاطي، والصدقة من أهم الأبواب، وهذا ما خصّه الله بالقول حيث أخبر عن المحتضر وأمنيته، فقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون: 63/ 10]، وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التغابن: 64/ 16].

هذا الذي يصلي ويظهر وكأنه مؤمنٌ مخلصٌ ويدعّ اليتيم ولا يحض على طعام المسكين. ويؤذي الناس بمعاملاته ويؤذي الناس بأخلاقه. كيف يصلي، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت: 29/ 45]، هناك فرق كبير بين أداء الصلاة -وهو: القيام بشروطها وأركانها- وبين إقامة الصلاة -وإقامتها: تدبرها، والخشوع فيها، والانصياع للقرآن الذي تقرؤه فيها، والخوف من الله سبحانه، والرجاء في رحمته، والطمع في جنته-.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» رواه مسلم، وفي رواية قال: «والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ...»، وعن عمار بن ياسر رضي الله عنه عن النبي ﷺ مرفوعًا قال: «ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام لعالم، والإنفاق من الإقتار» البخاري.

أعود إلى السورة: وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الماعون: 107/ 4-5].

(الويل): هو وعيد من الله سبحانه وتخويف منه سبحانه وتعالى، تخويف لهؤلاء المصلين لأنهم ساهون عن صلاتهم، قوله: للمصلين معانٍ عدة منها:

1. المصلّي الذي كُلِّفَ بالصلاة ولكنه لا يصلي، فهذا مثله كالطالب الذي لا يدرس ولا يقوم بوظائفه ولكن ما زال اسمه طالباً.
2. المصلّي الذي يعلم أن الصلاة فرض وهو يتهاون بها ويخرجها عن وقتها، ولا يحرص على أدائها في المساجد.
3. المصلّي الذي لا تزجره الصلاة ولا تنهاه عن الفحشاء والمنكر.
4. المصلّي الذي يأتي بالحركات ويصلي صلاة لا روح فيها ولا خشوع ولا تدبر، ساهٍ لاهٍ، قلبه وفكره مشغول بالدنيا والشهوات.

ساهون لها معاني عدة أيضاً.

1. (ساهٍ بها) أي: يسهو بالصلاة، تفكراً وتدبراً بالآيات، فانشغال فكره وقلبه بالآيات التي يقرؤها قد يجعله يسهو فلا يدري كم صلى، فهذا سهو مشروع مقبول، ومن رحمته سبحانه وتعالى سنَّ لنا ما نفعله من سجود السهو إذا سهونا.
2. (ساهٍ فيها) أي: أنه يسهو في الصلاة لانشغال فكره بدنياه، فيشرد فكره بأولاده، أو بأهله، أو بعمله، أو بماله، فهذا سهى في صلاته لوسوسة الشيطان.
3. (ساهٍ عنها): كما جاء في الآية والعياذ بالله فهذا ما شرحته آنفاً عن أحوال المصلّي، لا خشوع ولا تدبر ولا تفكر، ولا زجر، ولا روح فيها.
4. المصلي الذي لا يخشع في صلاته ولا تخشع جوارحه، وعن عمار بن ياسر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إن الرجل ينصرف -أي: من صلاته- وما كُتِبَ له إلا عُشرُ صلاته تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها) حم - د - حب.

والصفة الثانية: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ﴾ [الماعون: 107/ 6]. فما هو الرياء؟ قالوا: إن الرياء هو أن تُظهِر أمراً من أمور الدين ولكنك تريد فائدة ومصلحة دنيوية منه؛ أي: أن الرياء عمل في أصله ونيته لا يرجى به وجه الله سبحانه، والرياء ظاهره

ديني وباطنه دنيوي، تأتي إلى المسجد بذقن وطاقية ومسبحة وكلابية بيضاء، وتصلي صلاة حسنة حتى يعجب بك الناس ويثقوا بك، فتأخذ أموالهم بالباطل، أو تحصل على وظيفة، أو أي أمر دنيوي أنت تصبو إليه. وللرياء حالات:

1. رياء أكبر؛ أي: أن أساس العمل ونيته ليست لله تعالى، تدخل بشرك وتخرج بشرك، كالذي أوضحته في المثال السابق.
2. رياء أقل من الأول؛ وهو أن تقوم بعمل صالح ترجو به مرضاة الله تعالى، ولكن الناس يثنون عليك فتشعر بالسعادة وتشعر بالزهو وتشعر بالرفعة والمكانة فتزداد في العمل حتى يزداد الثناء، فهذا خرج من العمل مشركًا وقد دخل مخلصًا.
3. ورياء أقل من الثاني؛ وهو أن رجلاً دخل في العمل مخلصًا وخرج من العمل مخلصًا ولكنه يحب المديح ويستجديه ويُسرُّ بالثناء ويتضايق من النقد والنصيحة -نسأل الله المعافاة من حظ النفس- ودواء الرياء الكتمان، إلا ما اضطر إلى إظهاره، والالتجاء إلى الله دائمًا كما جاء في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لفاطمة رضي الله عنها: «ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به؟ أن تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين؟» ن- السلسلة الصحيحة (227)، وحديث أبي بكرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «دعوات المكروب، اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين أصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت» صحيح الجامع (3388).

قوله: «لا تكلني إلى نفسي طرفة عين» أي: لا تتركني لضعفي وعجزي ولا تتركني لهواي وتحكم شيطاني فيَّ، أستعين بك على ضعفي وشهواتي ونوازع نفسي، وحظ النفس وحب الثناء والمديح والرياء من نوازع النفس والشيطان، فألتجئ إلى الله سبحانه لأخذ العون والقوة والثبات على الحق بإذنه وبعونه. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: 17/ 74]، فالثبات من الله تعالى، والرشاد والهداية منه.

والمسألة الأخيرة في هذه السورة العظيمة: ﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾ [الماعون: 107/ 7]، يمنعون الخير بأية وسيلة، من يقترض مالاً ولا يعيده، من يستعير شيئًا ولا يردُّه، من يُعمل له معروف ولا يشكر فاعله، من ينكر الخير والمعروف، هذا الذي يمنع الماعون، لأنه بنكرانه وجحوده وعقوقه يجعل فاعل الخير نادماً متحسراً، وقد لا يفعل الخير بعدها؛ لأنه قوبل بالشر على خيره، فنسأل الله السلامة. والصفة الثالثة في هؤلاء الذين يمنعون الماعون -والماعون: اسم جامع لجميع المنافع التي يمكن إعارتها من أثاث البيت، وقيل: الماعون: الماء أو الصدقة أو الزكاة، أو الماعون: هو أي شيء ممكن أن يعين الناس في أحوال شدتهم أو أي خير يحتاجونه- فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أربعون خصلة أعلاها منيحة العنز، ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها وتصديق موعودها إلا أدخله الله بها الجنة» البخاري (2631)؛ أي: يعطي الإنسان ناقة أو بقرة أو شاة ذات لبن فيحلبها ويستفيد من حليبها، ثم يعيدها إلى صاحبها، هذا معنى: (منيحة العنز)، والنتيجة أن هناك ارتباط بين الدين والأخلاق، الدين ليس شعائر تؤدى فقط، ولا أشكال أو هيئات، الدين خُلُقْ، الدين معاملة، الدين صدق ووفاء، الدين صلاح وتقوى، الدين آداب نفسية واجتماعية وخلقية وتعاملية وشعورية، الدين اختلاج في الصدر ومحبة للخير ومحبة للناس، وإصلاح بكل معانيه، للمجتمع والبيئة والبشر والشجر والحجر، الدين رقي وحضارة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» البخاري ومسلم، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من يأخذ مني خمس خصال فيعمل بهن أو يُعلمهنّ من يعمل بهن؟ قلت: أنا يا رسول الله. فأخذ بيدي فعدهنّ ثم قال:

1. اتقِ المحارم تكن أعبد الناس.
2. وارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس.

3. وأحسِن إلى جارك تكن مؤمنًا.

4. وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلمًا.

5. ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب» صحيح الجامع (100)، وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له الجسد بالسهر والحمى» متفق عليه، وعن أبي ذر رضي الله عنه قلت: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال ﷺ: الإيمان بالله، والجهاد في سبيله. قلت: أي الرقاب أفضل؟ قال ﷺ: أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمنًا. قلت: فإن لم أفعل؟ قال ﷺ: تعين صانعًا أو تصنع لأخرق. قلت: يا رسول الله، أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟ قال ﷺ:« تكفَّ شرك عن الناس؛ فإنها صدقة منك على نفسك» متفق عليه. الدين إيمان وعمل، الدين أخلاق، الدين بر، الدين رقي وحضارة، وقوله ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» حم، عن قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته، قالو: كيف يسرق من صلاته؟ قال: لا يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها» حم – ابن خزيمة. وعن شرحبيل بن حسنة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أبصر رجلاً يصلي ولا يتم ركوعه ولا سجوده، فقال ﷺ: «لو مات هذا على ما هو عليه لمات على غير ملّة محمد» ابن خزيمة – طب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه